أمة تجهل بلادها

لك أن تجتمع مع أي أوربي قضى في المغرب أسبوعا واحدا لتراه يتحدث إليك عن جهات المغرب البعيدة وعن عادات لم تلق لها بالا وأنت تمارسها كل يوم. فإذا هو في جوه واسع المعرفة، ذو اطلاع على الأماكن التي يجب أن تزار لمنظرها الخلاب أو لقيمتها التاريخية، وإذا هو في ملاحظاته على عادات البلاد دقيق النظر يحلل العقلية المغربية ويحاول أن يتفهمها حق الفهم. بينما تجد المغربي ابن هذه المدينة لا يعرف شيئا عن المدينة المجاورة، ولم يزر من نواحي المغرب إلا ما يتصل بشؤون حياته الضيقة، بل لتلق عليه سؤالا عن ناحية من مدينته فإنه لا يستسطيع أن يتحدث إليك عن أصلها التاريخي إن لم يصارحك أنه لم يزرها قط.

وليس هذا الإهمال المشين ناشئ عن الجهل الذي تتخبط فيه الطبقات المغربية فحسب، بل وعن الخمول الذي يسود حتى الطبقات المتعلمة، فإن روح النشاط يكاد أن يكون مفقودا بين الشباب كما هو مفقود بين الشيوخ، ولذلك عدة أسباب يتصل بعضها ببعض ويؤدي جانب منها إلى جانب.

ولعل أهمها أننا لم نرب تربية اجتماعية، فإننا لم نعرف من صور الحياة إلا صورة العائلة في مجالها البيتي، والصداقة الفردية في أضيق حدودها. فإن لفقدان الجمعيات وعدم تذوقنا لفائدة المؤتمرات والاجتماعات التي تسهل ما يعسر على الفرد، أقوى تأثير في خمولنا؛ فإن الأوربيين القاطنين ببلادنا لهم مئات الجمعيات، كل جمعية ترمي إلى غاية واضحة، وتساعد الفرد للاختلاط بالمجموع والتعرف إلى نواحي البلاد الخفية، وهم لا يفترون عن عقد المؤتمرات، ففي كل أسبوع مؤتمر وفي كل أسبوع اجتماع رياضي أو فني أو علمي أو سياسي إلى غير ذلك مما تزخر به الصحافة الفرنسية وتنشر عنه الأعمدة الطوال.

وتلك الجمعيات أو هذه المؤتمرات والاجتماعات هى التي تجعل في إمكان الأوربي أن يعرف عن بلادنا ما نجهله نحن المغاربة كل الجهل؛ فإن الأوربي الذي يقصد المغرب للسياحة أو للإطلاع لا يدخل القطر إلا وقد اطلع على تاريخه، ولا يزور مدينة إلا وقد أحاط بماضيها وحاضرها، وهو في الغالب لا يحضر المغرب إلا منخرطا في جولة نظمتها جمعية أو أقامتها صحيفة أو أوجبها مؤتمر ، وهو في جميع ذلك مستفيد من رحلته، متمتع بروح الجماعة التي تسود الجوالين معه، فهو مضطر إلى البحث، وإلى تعرف الخفايا، وهو شغوف بمناظر المغرب الفتانة يصفها بالقلم أو يرسمها بالريشة أو يصورها بالآلة، فإذا رجع إلى بلاده حمل معه صورة عن المغرب، يضعها في تأليف أو يعرضها في معرض صور زيتية أو يسجلها بين صور صحيفة.

وليس ذلك النشاط يبدو على الرحالة في المغرب من الأوربيين فحسب، بل إن القاطنين منهم أيضا لا يتركون فرصة عيد أو عطلة أسبوع تمر، دون أن يزدادوا اطلاعا على المغرب ومعرفة بشؤونه؛ ففي كل أسبوع تقضى عطلته في غابة غناء، أو زورة ممتعة لتذكار تاريخي أو على خرير شلال يثير الشعور، فهم الذين يتمتعون بالمغرب وهم الذين يعرفون جماله ويتذوقون سحره؛ أما نحن فشغلنا محصور في أن نقضى طول اليوم بين جدران منزل، نقتل الوقت قرلا ونميت حيويتنا موتة في كلام فارغ، وجدال باطل، وفي ضروب من المداولة يتخللها البؤس، ويعمها الشقاء، ويكتنفها الاضطراب، ويسودها الخلل، فإذا اجتمعنا إلى أصدقائنا ففي كلام سخيف وشتم متواصل، يمر الزمان الذي كثيرا ما نتخلص منه بمثل هذه الوسائل، وإذا أهاج منا الربيع الإحساس الكمين، واتفقنا على نزهة ففي ملء البطون ولعب الورق والمشاجرة العنيفة، ونتناسى جمال الربيع وسحر نسيمه.

أما أسفارنا فهى لا تزيد عن انتقال من مدينة إلى مدينة، وتمثيل دور هذه المدينة في تلك، لا نستفيد منها، فإننا لم ندرك بعد أن السفر هو الدرس العملي في الحياة.

فنحن أمة لا تجهل غيرها فحسب، بل تجهل بلادها وحياتها أيضا وتلك معركة لا يتحمل وخزها إلا الشباب المتعلم، الذي رغم ثقافته لم يستطع أن يخرج بحياته من وسطها المغربي الضيق، إلى حياة جديدة تمثل النشاط وتبين عن فتوة وتقتبس من عصرها، لتعيش في عصرها.

فليحاول الشباب أن يزيح عن حياته هذه الصور الجامدة وليخرج بها من دائرة ضيقة متهدمة إلى صور تعاونية اجتماعية تكون طريق تعرفه ببلاده، وبذلك وحده يستحق المغربي أن يعيش في هذه البلاد الجميلة الغنية.